زيارة الشيخ الإمام محمد عبده إلى الجزائر سنة 1903

الوقائع... والتداعيات

The visit of Sheikh Imam Muhammad Abdhu to Algeria in 1903 The facts... and the repercussions

أ.د. لونيسي إبراهيم
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة سيدي بلعباس–الجزائر
lounicib@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2021/11/11 تاريخ القبول: 2021/11/26 تاريخ النشر: 2021/12/30

ABSTRACT :

Algeria was a visiting station for many thinkers, travelers and clients at the end of the nineteenth century and the beginning of the twentieth century, including Sheikh Imam Muhammad Abduh, who visited it in 1903, and this study seeks to answer a number of questions, most notably: Why this visit at the beginning of the twentieth century? Did the colonial administration have a role in organizing this visit? And how did they deal with Sheikh Imam during it? What are the most prominent activities that he did in the city of Algiers? Who are the Algerian personalities he met during this visit?

Keywords: Muhammad Abduh; colonial administration; reformist ideas; arbitrary policy; Al-Manar magazine; Charles Jannart; Omar Ben kadddour; Cromer; Rachid Reda; Algiers.

الملخص:

كانت الجزائر محطة زيارة الكثير من المفكرين والرحالة والعملاء في أواحر القرن التاسع عشر وبدايات القران العشرين، ومن هؤلاء الشيخ الإمام محمد عبده الذي زارها سنة 1903،

وهذه الدراسة تسعى إلى الإجابة على جملة من الأسئلة أبرزها : لماذا هذه الزيارة في فاتحة القرن العشرين؟ وهل كان للإدارة الاستعمارية دور ما في تنظيم هذه الزيارة؟ وكيف تعاملت مع الشيخ الإمام خلالها؟ وما هي أبرز الأنشطة التي قام بها في مدينة الجزائر؟ ومن هي الشخصيات الجزائرية التي قابلها خلال هذه الزيارة؟

الكلمات المفتاحية: محمد عبده؛ الإدارة الاستعمارية؛ الأفكار الإصلاحية؛ السياسة التعسفية؛ مجلة المنار؛ جمال الدين الأفغاني؛ مصطفى بن خوجة؛ عبد الحليم بن سماية؛ شارل جونار؛ ذو الفقار.

المقدمة:

كانت الجزائر لعقود من الزمن محط الكثير من الزوار والرحالة الذين جاؤوها أو عبروها لأغراض وأهداف عديدة ومختلفة، ولقد تزايد هذا بشكل ملحوظ خلال العهد الفرنسي حيث قام بزيارتها الكثير من الشخصيات والمفكرين والأدباء والعلماء وهناك من قام بتسجيل وقائع هذه الزيارات من أمثال هاينريض فون مالتسان Heinrich Von Maltzan الألماني الذي زارها خلال منتصف القرن التاسع عشر وكذلك السياسي المصري والمحامي محمد فريد بك صاحب كتاب "تاريخ الدولة العلية العثمانية"، والذي زارها سنة 1901، وخلد هذه الزيارة في كتابه "من مصر وإلى مصر"، وهناك آخرين قاموا بزيارتها دون تسجيل مشاهداتهم وتنقلاتهم عبر ربوع الجزائر إلا أنه كانت لهذه الزيارات آثار وتداعيات مختلفة بشكل أو بآخر مثل زيارة كارل ماركس Karl Marx لها سنة 1882 صحية محضة وكذلك زيارة محمد عبده سنة 1903.

وهذه الزيارة الأخيرة هي موضوع دراستنا هذه. وفي البداية نود الإشارة إلى أن الشيخ الإمام لم يخلف لنا شيئا مكتوبا بقلمه عن هذه الزيارة، إلاّ أنّها أسالت حبرا كثيرا في حينها من طرف أقلام كثيرة وعديدة كما أنها كانت موضوعاً لكثير من الدراسات والبحوث التي نظر فيها أصحابها إلى هذه الزيارة كل من وجهة نظره، ونحن من خلال هذه الدراسة سنسعى إلى الإجابة على جملة من التساؤلات أبرزها: لماذا هذه الزيارة من محمد عبده إلى الجزائر في هذا الظرف بالذات أي فاتحة القرن العشرين؟ هل كان لها علاقة بمشروع شارل جونار Charles Jannart الوالي العام الفرنسي في الجزائر الثقافي الإصلاحي خاصة وأن هذه الزيارة تزامنت مع بداية حكم هذا الرجل للجزائر سنة 1903م؟ وبالتالي هل كانت هذه الزيارة بدعوة خاصة من الإدارة الفرنسية؟ وقبل ذلك يجب علينا الإجابة على سؤال آخر لا يقل أهميّة عن سابقيه: هل كان محمد عبده على دراية وعلم بما كان يجري في الجزائر من سياسة قمعية ضد المسلمين الجزائريين من الإدارة الاستعمارية الفرنسية؟ وهل لهذه الزيارة علاقة بتلك المناظرة الحادة والعنيفة التي جرت بينه وبين غابريال هانوتو Gabriel Hanotaux من جدال ونقاش حادين وسال من أجلها حبر كثير خاصة وأن هانوتو كان رجلا متنفذا في الإدارة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر؟وهل لها أيضا علاقة بالأمير عبد القادر وإن كان قد توفي قبل هذه الزيارة بحوالي عقدين من الزمن ونحن نعرف جيداً تلك العلاقة التي تكوّنت بينه وبين الأمير وبعض أبنائه وكذا بالجالية الجزائرية عندما كان متواجداً في بلاد الشام التي نفي إليها؟ وبعد ذلك سنحاول التوقف مليا عند أبرز تداعيات هذه الزيارة على الوضع العام في الجزائر.

1– محمد عبده والجزائر قبيل الزيارة:

إنّ المتتبع لسيرة الشيخ الإمام محمد عبده المولود سنة 1849 [1] سيلاحظ مدى حرصه الشديد على السفر والتنقل بين البلدان والأمصار سواء العربية الإسلامية منها أو الأوروبية، وهذا لإيمانه الشديد أن الاطلاع على الأوضاع المختلفة بهذه المناطق والبلدان رؤية العين والمشاهدة أكثر فائدة وأهمية من القراءة عنها، ويبدو أن السبب في ذلك هو اهتمامه بقضايا التطوّر والتقدم من جهة، وكذا التخلف والتدهور من جهة أخرى، وكان هدفه الأساسي من كل هذا أيضا عقد مقارنات عملية وليس نظرية بشأن هذا الموضوع، خاصة وأنه كان شغوفا ومهووساً بفكرة إصلاح أوضاع مصر وكذا غيرها من المناطق العربية الإسلامية، كما أن الرحلات والأسفار تلعب دوراً هاماً في تطوير المعارف والمعلومات المختلفة خاصة لرجل مثل الشيخ محمد عبده الذي كان يتألم كثيراً لحالة التدهور والانحلال والفساد الذي استشرى في العالم الإسلامي منذ عدة قرون، حيث وصلت هذه الحالة إلى درجة اللاحتمال، خاصة وأنّ جلّ المناطق كانت ترزح تحت نير الاستعمار الأوروبي أو كانت محط أنظاره وأطماعه، ويتحين الفرصة المناسبة للانقضاض عليها، بل والأكثر من ذلك أنه عايش بشكل مباشر بدايات الاحتلال البريطاني لوطنه مصر سنة 1882 وذلك مباشرة بعد انهزام الثورة العرابية بقيادة أحمد عرابي باشا، كما أنه كان أحد أبرز رجالات هذه الثورة، والتي كانت من أبرز نتائجها عليه نفيه عن وطنه لمدة ثلاث سنوات.

من خلال كل هذه الظروف تولدت لدى محمد عبده رغبة شديدة وملحة للقيام بهذه الرحلات والزيارات بهدف الاطلاع المباشر على أوضاع العالم الإسلامي بالدرجة الأولى،

وبالتالي إمكانية تقديم الأفكار والحلول اللازمة للنهوض بشعوبه، فقد كان الشيخ الإمام يتوق منذ سنوات لزيارة بلدان المغرب تونس والجزائر والمغرب الأقصى، بعد أن اطلع على أوضاع بلاد الشام، والمساهمة في طرح جملة من الأفكار والآراء لإصلاح أوضاعها[2]. ولقد تحقق حلمه بزيارة تونس سنة 1884، وإن كانت هذه الزيارة حسب ما يراه أبو القاسم سعد الله أنها كانت شخصية أكثر منها دعوية، «فقد قيل أنه نزل ضيفا على الأميرة نازلي إحدى حفيدات محمد علي باشا وزوجة خليل بوحاجب أخ سالم بوحاجب أحد المعجبين بخير الدين باشا التونسي ومحمد عبده معا، ومع ذلك فقد استقبله باي تونس وأعيانها وعلماؤها... وقد حضر محمد عبده احتفال التونسيين بالمولد النبوي الشريف، ولا ندري مدى تأثير هذه الزيارة على النخبة التونسية لأن مصادر الزيارة قليلة... وإذا كان هناك أي تأثير على الجزائر نتيجة هذه الزيارة فغير معروف الآن...»[3] ، ولكن مهما يكن من أمر هذه الزيارة فبدون شك أنها فتحت أعين الشيخ الإمام على أمور كثيرة وبدون شك أنها سمحت له بالإطلاع على أحوال تونس وأوضاعها عن قرب.

وسيعود إليها سنة 1903 ويزورها للمرة الثانية في الفترة ما بين 9 و24 سبتمبر 1903 وهذا بعد أن أنهى زيارته للجزائر والتي كانت في الفترة ما بين 27 أوت و9 سبتمبر 1903، ولقد توجه إليها بواسطة القطار وكان يأمل في زيارة المغرب الأقصى في وقت لاحق إلا أن الأجل وصله قبل تحقيق هذا الحلم[4]. ولكن قبل الحديث عن وقائع زيارته للجزائر وتداعياتها، يجب علينا الإشارة هنا إلى أن علاقة محمد عبده بالجزائر وببعض الجزائريين ليست وليدة هذه الزيارة، بل تعود إلى ما قبل ذلك بأكثر من عقدين من الزمن وتحديدا عندما حكم عليه بالنفي بعد فشل الثورة العرابية سنة 1882 بمصر حيث حكم عليه بالنفي لمدة ثلاث

سنوات إلى بيروت ببلاد الشام وذلك يوم 13 صفر 1300 الموافق لـــ 24 ديسمبر 1882، وإن لم يطل الإقامة ببلاد الشام، فإنه تمكن من ربط علاقات مع بعض الجزائريين الذين كانوا متنفذين هناك وعلى رأسهم الأمير عبد القادر الجزائري وبعض أبنائه، وكذا ببعض الجزائريين الذين هاجروا إلى هذه البلاد بعد هزيمة مقاومة الأمير عبد القادر في ديسمبر 1847، والتحاقه هو شخصيا ببلاد الشام أيضا بعد إطلاق سراحه من السجون الفرنسية في ديسمبر 1852.

بمجرد وصول الشيخ الإمام محمد عبده إلى بلاد الشام قام الأمير عبد القادر بإرسال إبنه محي الدين لمقابلته ودعوته لزيارته[5]، وبالفعل لبى الدعوى وبدون شك أن هذا اللقاء الذي جمع بينهما قاما خلاله بتبادل الآراء حول شؤون البلاد الإسلامية، ويبدو أن قصر المدة التي تعايش فيها الرجلان في بلاد الشام لم تسمح لهما بالكثير من اللقاءات إذ أنه بعد وصول محمد عبده إلى بيروت بحوالي ستة أشهر، يتوفى الأمير عبد القادر في شهر ماي 1883، ويقول أبو القاسم سعد الله أنه من الممكن أن يكون الأمير عبد القادر قد تحادث مع محمد عبده عن أحوال الشرق والجامعة الإسلامية... وتدل المراسلات بينهما على وجود علاقة خاصة وإن محمد عبده كان يحمل تقديرا كبيرا للأمير عبد القادر[6]. ويمكن لنا اعتبار رسالة التعزية التي كتبها الشيخ الإمام محمد عبده لأبناء الأمير عبد القادر بعد أن تناهى إلى مسامعه خبر وفاة الأمير أصدق دليل على ذلك، إذ عزى محمد عبده بصفة خاصة كل من الأمير محمد والأمير محي الدين بحرارة إذ رأى فيهما خير وريث له، وأهم ما جاء في هذه الرسالة: «... اليوم غشيتني غاشية الغم، ودهتني داهية الهم، اليوم بلغنا ما أصابنا، وأصاب المسلمين، و لم يخص الأقربين، عن هم جميع الموحدين، و لم يمس ذوي الأرحام، حتى زعزع مجد الإسلام، اليوم شاع على الأسى، وتحدث لكافة الأجناب الأمير الشهير، صرف عن نظره العالي عن مظاهرة الحياة

الدنيا، واستقبل بتمام وجهه ملكوت ربه الأعلى، سار بروحه الشريفة عن عالم الفناء، إلى ما أعد له من منازل الكرامة في دار البقاء، قد اختار لنفسه ما اختار الله له من الاختصاص، بجوار الكريم، والاتصال بنور وجهه العظيم، نظر الله إلينا بعين الجبروت ليصعد بجناب الأمير إلى أعلى الملكوت، سار الأمير إلى ربه وترك المؤمنين بلا قيم عليهم، لا وصي يعيد مجدهم إليهم، ولولا اليقين بأنكم أشباله، ولم تفتكم مزاياه وخلاله، لما تعزت النفوس في البقاء بعده، وللحقنا به اختيارا لما عنده، كل قول يقال فهو دون محيط الفكر والنظر، ومقام الأمير أجل من أن تصل إلى سرادقاته أشعة البصائر والفكر، وليس من كلمة أجمع من كلماته، ولا قول أوفى لفضائله، سوى أنه (الأمير عبد القادر الجزائري) فهو منتهى وصف الواصفين، وغاية مدح المادحين، وكفى في مصيبة أهل الإيمان أن يقال: أصبحوا بلا أمير، وحسبهم تعزية عن مصابهم أنكم بنوه، وورثة فضله ومعزوزه»[7].

غادر الشيخ الإمام محمد عبده بلاد الشام في أواخر سنة 1883 بدعوة من جمال الدين الأفغاني بهدف الالتحاق به بباريس العاصمة الفرنسية، وكانت الرسالة التي دعا فيها تلميذه للالتحاق به مؤرخة بـــ 23 سبتمبر 1883، ليقف معه ويساعده في إصدار مجلة العروة الوثقى، التي صدر فعلا عددها الأول في 13 مارس 1884 والتي سيصدر منها 18 عددا إلى غاية شهر أكتوبر 1884، حيث قررا توقيف المجلة عن الصدور بسبب العراقيل الكثيرة التي واجهت عملية إصدارها، وقبل إصدار هذه المجلة قاما بتشكيل جمعية سرية حيث كتب محمد رشيد رضا أن هذه الجمعية هي (جمعية العروة الوثقى)، وهي جمعية سياسية سرية لم يطلع أحد على قانونها الأساسي ولا على اليمين الذي كان يقسمه الأعضاء الخواص من رجال الجمعية، وكلهم من خواص المسلمين[8]، ويذكر أيضا أن جريدة هذه الجمعية – ويقصد بها مجلة العروة

الوثقى– كانت ترسل إلى كبار العلماء والأمراء والزعماء في جميع الأقطار الإسلامية، وقد كان من أعضائها الأمير عبد القادر الجزائري، ومن اختار من أنجاله ورجاله[9]. وهنا يجب علينا الإشارة إلى أنه من الاستحالة أن يكون الأمير عبد القادر عضوا في هذه الجمعية، كما أنه لم يتلق أي عدد من أعداد (مجلة العروة الوثقى) لأن الأمير كان قد توفي في 23 ماي 1883، أي قبل أن يذهب محمد عبده إلى باريس تلبية لدعوة أستاذه بتاريخ 23 سبتمبر 1883، والغريب أن أبو القاسم سعد الله يشير إلى كون الأمير كان عضواً في جمعية العروة الوثقى[10]، دون أن يحقق في هذا الأمر، فهل أن هذه الجمعية تأسست قبل وفاة الأمير عبد القادر ولكنها تأخرت في إصدار المجلة المتحدثة باسمها وهي مجلة العروة الوثقى إلى غاية مارس 1884؟

ويمكن لنا القول أن تنقلات محمد عبده الكثيرة في أوروبا سمحت له بشكل واسع الاطلاع على أوضاع المستعمرات الأوروبية وأحوالها خاصة تلك التي كانت تحت القبضة البريطانية والفرنسية، إذ أنه تنقل في العديد من هذه الدول خصوصا سويسرا وبريطانيا وفرنسا كما أنه زار لفترة من الزمن الآستانة، وفي بريطانيا التي زارها في صيف 1903 التقى بالفيلسوف الانجليزي سبنسر Spencer وتناقشا في أحوال الشرق والغرب، ومن بريطانيا توجه إلى فرنسا التي مكث فيها حوالي أسبوعين[11] قبل أن يغادرها قادما إلى الجزائر.

كما أنّ هذه الرحلات والتنقلات خاصة تلك التي قادته إلى تونس سنة 1884 وإلى باريس عدة مرات سمحت له من تكوين نظرة ولو عامة عن الأوضاع التي كانت سائدة في الجزائر التي سيزورها ابتداء من أواخر شهر أوت 1903، ويمكن لنا أن نضيف إلى كل هذا مطالعاته الكثيرة خاصة تلك الكتابات التي كتبها أحد الأعمدة الصانعة للفكر الاستعماري الفرنسي غابرييل هانوتو Gabriel Hanotaux(1853- 1944) الذي شغل منصب وزير

خارجية فرنسا لفترتين الأولى من 1894 إلى 1895 والثانية من 1896- 1898، ليصبح بعد ذلك عضوا في أكاديمية اللغة الفرنسية منذ سنة 1897، حول الإسلام والتي كتبها في حدود سنة 1900– 1901 حيث تصدى له بالرد[12].

2– مقدمات الزيارة:

لقد أبدى الشيخ الإمام محمد عبده رغبة ملحة لزيارة الجزائر مع بدايات سنة 1903، وهذا بهدف الوقوف على أحوال سكانها من المسلمين، ويبدو أن هذه الرغبة تولّدت في نفسه منذ أن زار تونس في ثمانينيات القرن التاسع عشر، ويقول أبو القاسم سعد الله في هذا الشأن أنه خلال ذلك كان هناك في تونس بعض الجزائريين في جامع الزيتونة، وفي الإدارة وفي الصحافة، فليس غريباً أن يلتقي الشيخ الإمام بعدد منهم عندئذ، وأن يعرف منهم القليل أو الكثير من أحوال الجزائر، ويضيف قائلا: «ولا نظنه إلا قد سمع عن السياسة الفرنسية فيها وعن أحوال التعليم والقضاء والأوقاف والمساجد والحج، فأراد أن يقف بنفسه على جليات الأخبار»[13].

ويبدو أن محمد رشيد رضا أراد أن يظهر هذه الرغبة بشكل غير مباشر من خلال مجلة المنار، التي كتب فيها مقالة بعنوان (فرنسا والجزائر)، وذلك تحت باب الأخبار والآراء، وفيها تذكير بمقالة كان قد نشرها في المجلة نفسها بعنوان (فرنسا والإسلام)[14]، وفيه يقدم لهذه الدولة جملة من النصائح أبرزها أن تعامل مسلمي مستعمراتها بالحسنى لتملك قلوبهم، وتأمن غائلتهم، ويقول: «ونحن نعلم أن فرنسا لم تكن مرتاحة إلى تلك المعاملة القاسية التي كانت تعامل بها مسلمي الجزائر، ولكنها كانت ترى أنها هي الطريقة المتعينة، وأنه يجوز أن يظهر لها خير منها، وفي هذه الأيام قد زار الجزائر رئيس الجمهورية وبشر الأهلين بأن هذه الزيارة مبدأ

معاملة جديدة مرضية وبالغ في استمالة القلوب وطيب الائتلاف ولولا العزم على حسن العمل لما صدر عنه مثل هذا القول وما جزاء الإحسان إلا الإحسان»[15].

يرى أبو القاسم سعد الله أن محمد عبده، خلال زيارته إلى فرنسا التي وصلها في 10 أوت 1903، ومكث فيها حوالي أسبوعين، يكون قد اتصل بالسلطات الفرنسية لتسهيل زيارته للجزائر، أو يكون قد جرى الاتصال به لترتيب هذه الزيارة إذ لا بد من رخصة خاصة لزيارة الجزائر، وهذه الرخصة لا تمنح إلا لمن تعهد بعدم إثارة الشغب والخوض في المسائل السياسية[16]، وهناك مؤرخ فرنسي يؤكد لنا أن الوالي العام الفرنسي على الجزائر آنذاك شارل جونار، الذي لم يمر على تعيينه في هذا المنصب سوى أربعة أشهر عند زيارة الشيخ الإمام للجزائر، حيث كان ذلك في ماي 1903، قد توسط للشيخ الإمام محمد عبده رفقة السيد غابريال هانتو لزيارة الجزائر[17].

ويمكن لنا أن نسجل هنا أن شارل جونار كان معجبا بأسلوب محمد عبده الدعوي وهذا إذا صح ما أشيع عنه أنه قال عن الشيخ الإمام : «لو كان في المسلمين عشرون شيخا مثل الشيخ محمد عبده لاعتز الإسلام جانبا وكبر شأنا، ولرضيته لي دينا» !![18]

وتجب الإشارة هنا إلى وجود عدة اختلافات حول صاحب المبادرة في هذه الزيارة، فهل الشيخ الإمام محمد عبده هو المبادر بها ووافقته عليها السلطات الفرنسية؟ خاصة وأنه كان راغبا في القيام بها بهدف الوقوف على الأحوال العامة للمسلمين في الجزائر؟ أم أنها كانت مبادرة فرنسية، والهدف منها اجتذاب الشيخ محمد عبده الذي عاش في فرنسا فترة إبعاده عن مصر، خاصة وأن هذه الزيارة إذا تحققت فإنها تتوافق إلى حد ما مع جزء من السياسة التي كان

شارل جونار يزمع إتباعها في الجزائر بعد التحاقه بها كوالي عام في ماي 1903 والتي تتلخص في العمل على إحياء فن العمارة الإسلامية، وبعض التراث العربي الإسلامي المكتوب، والتقرب من طبقة المثقفين التقليديين، وتشجيعهم على القيام بمهمتهم القديمة كإقامة الدروس في المساجد وغيرها[19].

ونجد أبو القاسم سعد الله يتساءل: ومن يدري فقد يكون لبريطانيا أيضا مصلحة في زيارة الشيخ عبده لمستعمرة فرنسية غير عادية كالجزائر، ذلك أن علاقة هذا الشيخ باللورد كرومر Cromer حاكم مصر أصبحت ودية؟[20]

وأمام كلّ هذه التساؤلات والفرضيات يجب علينا الإشارة إلى ما كتبه محمد رشيد رضا بعد أن انتهى محمد عبده من زيارته إلى الجزائر في مجلة المنار، حيث يقول: «إن بعض الأشرار لما علموا أن الشيخ الإمام كان عازماً على زيارة الجزائر في صيف 1903 قاموا بكتابة رسالتين إلى حكومة الجزائر، إحداها أرسلت من مصر والأخرى من الإسكندرية، وفيهما ما فيهما من قول الزور والإغراء بالإمام بزعم أنه لا يقصد بالسفر إلى الجزائر إلا تحريض المسلمين على الثورة والخروج على الحكومة، ونبذ طاعتها وأنه قادر على ذلك...»، ويقول أنهم كتبوا هذا «لاعتقادهم أن الحكومة الفرنسية هناك حكومة خرقاء تأخذ بالشبهة وتنتقم من البريء لأدنى وهم يوسوس به شيطان من شياطين الإنس، أو يهجس به في الخاطر عفريت من الجن، ولظنهم أنّ الحكومة الفرنسية تجهل قدر الأستاذ الإمام، ومقامه الديني، ولكن الحكومة الفرنسية فوق أوهامهم وأحلامهم، فقد بلغنا أنها تلقت الرجل العظيم بالحفاوة والإجلال اللائقين بشخصه، وبمقامه الديني والعلمي، كما تلقاه في انكلترا كبراء الانكليز وعلماؤهم، فسُرّ بهذه

المعاملة الحسنة لأشهر أئمة المسلمين في هذا العصر مسلمو الجزائر ورأوا ذلك دليلا على حسن قصد حكومتهم وحسن سياستها»[21].

ومن حقنا هنا أن نتساءل من هي الجهات التي سعت إلى إرسال هاتين الرسالتين والتي أسماها محمد رشيد رضا (سحابة خائبة)؟ وما هو الهدف المرجو من ذلك؟ وهل فعلا فرنسا استقبلت الشيخ الإمام بهذا الشكل الذي وصفه محمد رشيد رضا؟ أم أنها تعاملت مع هذه الزيارة بالحذر والتخوف منها مما يمكن أن يترتب عنها؟

لقد تعاملت الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر مع هذه بحذر شديد ولنا في ذلك مجموعة من الأدلة يمكن لنا تلخيصها في ثلاثة:

1- كانت فرنسا متأكدة أن الشيخ الإمام محمد عبده له موقف واضح وصريح من الاستعمار الفرنسي وسياساته المتبعة ليس في الجزائر فقط بل في جميع مستعمراتها الإسلامية، وهو موقف مشابه إلى حدٍ ما لموقفه من الاستعمار الانجليزي وإن كان موقفه من الاستعمار الفرنسي أشد قسوة نوعاً ما، وهذا الموقف نستشفه من تلك المحاورة الشيقة التي دارت بينه وبين محمد بيرم التونسي في رمضان 1315 الموافق لسنة 1897 حول الاحتلال وأعماله المنكرة، حيث قال محمد عبده عن فرنسا أنه لا توجد أمة تبغض المسلم لأنه مسلم، لا لأمر آخر إلا فرنسا «... إنّني لما كنت أجتمع مع أحد الفرنساويين للمذاكرة في أحوال الشرق امتعض وينتفض جسمي كله» ويقول أيضا أن «الفرنساوي إذا مدح الإسلام وذكر شيئا من مزاياه فلا بدّ أن يكون غرضه من ذلك منفعة فرنسا، وذكر عبده رجال منهم ألفوا كتبا بهذا المعنى ثم صرحوا في آخر ما كتبوا بحالتهم مع المسلمين في الجزائر وما ينبغي عمله لبقاء سلطتهم فيها»[22].

2-عدم إشارة جريدة (المبشر) الناطق باسم الولاية العامة بالجزائر والموجهة أساساً للأهالي إلى هذه الزيارة ولو بكلمة واحدة، أو حتى تلميحا، حيث اطلعت على كامل أعدادها الصادرة خلال سنة 1903، بل وحتى الأعداد الصادرة سنة 1904، ولم نعثر فيها على أيّ إشارة إلى هذه الزيارة، ولا حتى إلى الشيخ الإمام محمد عبده، وهذا يدفعنا بالضرورة إلى طرح السؤال: ما هو السر في إحجام الجريدة عن الحديث عن هذه الزيارة؟ وهل يمكن لنا تفسير ذلك بتخوف السلطات الفرنسية من هذه الزيارة، لهذا عملت كل ما في وسعها لتجعلها في نطاق محدود، ولا تحاول نشر خبرها على جميع (الأهالي) حتى لا تثير رغبتهم في الاتصال به، والذي من الممكن أن يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه بالنسبة للإدارة الفرنسية.

3-العديد من المصادر تذكر أن الإمام استقبل بحفاوة من طرف السلطات الفرنسية في الجزائر، بما فيهم الشيخ محمد رشيد رضا فيما كتبه عن هذه الزيارة، إلا أننا لم نعثر على اسم أي مسؤول من الإدارة الفرنسية قام باستقباله.

3- نشاطات الإمام الشيخ في مدينة الجزائر واتصالاته

لقد حلّ الشيخ الإمام بمدينة الجزائر يوم 27 أوت 1903 قادماً إليها عن طريق البحر من ميناء مرسيليا، ولقد وجد في هذا الميناء أحد المثقفين الجزائريين المتعاملين مع الإدارة الفرنسية وهو الشيخ أبو القاسم الحفناوي الذي كان يشتغل محررا في جريدة (المبشر)، وكان ذلك دون أي إعلام مسبق حيث أنهما تعارفا داخل الباخرة، وهذا على حسب ما رواه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي عندما سأل الشيخ الحفناوي عن ما إذا تعرف إلى الشيخ محمد عبده واجتمع به يوم أن زار الأستاذ الإمام الجزائر، ولقد سجل لنا عبد الرحمن الجيلالي قصة هذا

اللقاء في الجزء الرابع من كتابه "تاريخ الجزائر العام" في الصفحتين 429–430، ويقول أبو القاسم سعد الله أن الشيخ الحفناوي فارق الإمام محمد عبده بمجرد وصول الباخرة إلى ميناء الجزائر، لأن مهمته انتهت عند هذا الحد[23]. وهنا يمكن القول أن الشيخ الحفناوي كان أول جاسوس تصدره الإدارة الاستعمارية لمراقبة الشيخ الإمام وهو داخل الباخرة، ويقول أبو القاسم سعد الله أن مهمة مراقبته سلمت لآخرين بعد ذلك وكانوا يعدون عليه أنفاسه، ويتتبعون خطواته ونظراته، فيكتبون عنه وعن زواره التقارير للإدارة الفرنسية[24].

ونجد محمد رشيد رضا يؤكد لنا قيام فرنسا بزرع العديد من الجواسيس حول الأستاذ الإمام محمد عبده وهذا رغم حفاوة الاستقبال التي حظي بها بمجرد وصوله التراب الجزائري حيث يقول أنهم بثوا حوله الكثير من الجواسيس ليراقبوا مختلف حركاته ونشاطاته، وحتى الشيخ الإمام لم يكن يجهل ذلك لهذا كان حذراً في نشاطاته، وحاول قدر الإمكان أن يبتعد عن الخوض في الأمور السياسية في مختلف نشاطاته.

استمرت هذه الزيارة إلى غاية 9 سبتمبر 1903، وخلال هذه الفترة نال الإمام مراده حيث اجتمع بخيار العلماء والعقلاء الذين يقدرون الإصلاح قدره، ومن خيارهم في الجزائر الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة صاحب المصنفات، والأستاذ الشيخ عبد الحليم بن سماية، وهذا الأخير هو الذي استضافه في بيته طيلة مدة إقامته في الجزائر، وإلى جانب هذه الشخصيات التي تعرف عليها الشيخ الإمام، والذي ذكرها لنا رشيد رضا، هناك شخصيات أخرى كثيرة منها مفتي المالكية الشيخ محمد بن زاكور، ومفتي الحنفية محمد بوقندورة ويوسف بن سماية، وعبد الرزاق الأشرف[25].

لقد عقدت معه هذه الشخصيات الكثير من الجلسات الفكرية والتوعوية والوعظية بهدف الاستفادة من علمه الغزير، ومن أبرز الأنشطة التي قام بها في مدينة الجزائر تفسيره لسورة العصر، وذلك في مسجد مصطفى الأكحل – الحر– الكائن والقائم إلى اليوم في حي الحامة – بلكور سابقا– بالقرب من ضريح الوالي الصالح الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن الأزهري، وليس في الجامع الجديد كما ذكر البعض، وهذا على حسب ما ذكره الشيخ عبد الرحمن الجيلالي في كتابه السابق الذكر في الصفحة 406، ولقد قدم الشيخ الإمام هذا الدرس في التفسير بطلب من بعض العلماء الذين لازموه طيلة إقامته بالجزائر.

ويذكر أبو القاسم سعد الله أن هذا الدرس حضره حوالي مائتي شخص من مختلف أنحاء القطر، ودام حوالي ساعتين، وتحدث فيه على الصبر والصلاة والتعلق بالله وفعل الصالحات وتطبيق الشرع والالتزام بالأخلاق الفاضلة والتمسك بالإيمان الصحيح، ويذكر أيضا أن البعض قد استنتج من أن اختياره لهذه السورة يدل على التزامه بعدم التدخل في السياسة لأن هذه السورة تحث على الاستسلام لله والصبر في سبيله، ولا تدعو إلى الجهاد أو الانتفاضة[26].

ونسجل هنا أن محمد رشيد رضا قد نشر هذا التفسير في مجلة المنار بعد رجوع الشيخ الإمام إلى مصر، وقيامه بمراجعته وتصحيحه، ولقد قدم لهذا التفسير بقوله أن بعض علماء الجزائر اقترحوا على الأستاذ الإمام أيام كان عندهم أن يقرأ لهم درسا عاما يستفيدون منه، ويتحقق به تلقيهم عنه، ففسّر لهم سورة العصر، «وقد كتب بعض من حضر الدرس ملخص ما قال الإمام وكتب بعضهم يقول أن بعض الكاتبين أخطئوا فيما كتبوا واقترح أن يكتب

الأستاذ الإمام نفسه تفسير السورة وينشر في المنار ليصحح عليه الكاتبون ما كتبوا فعرضنا ذلك عليه فكتب...»[27].

قام محمد رشيد رضا بعد ذلك بمدة من الزمن بإعادة نشر هذا التفسير في كتاب صغير الحجم معه ملخص الشيخ الإمام للدرس الذي ألقاه في تونس وكان موضوعه بعنوان (العلوم الإسلامية والتعليم)، ويذكر رشيد رضا أن الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة وهو أحد أعلام الجزائر المشهورين بتآليفهم المفيدة قام بإرسال رسالة إلى الشيخ الإمام يقوم فيها ما نصه: «وقد اطلعت في المنار الأنور على تفسير سورة العصر بقلمكم البديع، فراقني أسلوبه الفائق العجيب، وأخذ مني مترعه العجيب بالتلابيب، ولله أنتم، ولله درّكم، ما أبعد غور فكركم الصائب، وغوص ذهنكم الثاقب، في استنباط دقائق المسائل، وتقرير حقائق الفضائل، ولشدة شغفي به قرأته على ملأ عظيم من العلماء والطلبة والأعيان عشر مرات في مجالس متفرقة، فاستحسنوه جدا، واستجزلوا فوائده، وأبدوا من السرور ما لا مزيد عليه، وأثنوا على جنابكم السامي بما أنتم أهله، ودعوا لكم من صميم الفؤاد بسعادة الدارين»[28].

ولقد تحدث الشيخ الإمام للجزائريين، خلال زيارته هذه على ضرورة إصلاح الإسلام، وهذا بإبعاد الشوائب والبدع التي ألحقت به، كما حدثهم عن النهضة في الشرق، وأبدى الإمام امتعاضه الشديد وحزنه العميق على مدى التدهور الواضح الذي عم المجتمع الجزائري، وخاصة من ظاهرة اختفاء اللّغة العربية، وهذا ما جعله يقول عن جريدة (المغرب) الجزائرية عندما قدم له عدد منها بأنها مفيدة للجزائريين رغم أخطائها الكثيرة، لأنهم مجردون من الصحف العربية الوطنية[29].

وقبل الحديث عن تداعيات هذه الزيارة على الجزائر والجزائريين يجب علينا الوقوف مليا عند جملة من النصائح التي قدمها الشيخ الإمام للجزائريين وأبرزها وأهمها قوله لهم بضرورة الجد في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية، وكذا الجد في الكسب وعمران البلاد، إلا أنّ النصيحة الأخطر والتي تثير في أذهاننا العديد من التساؤلات تلك التي طالب فيها من الجزائريين مسالمة الحكومة الفرنسية وترك الاشتغال بالسياسة[30].

وأبرز سؤال يطرح في شأن هذه النصيحة هل هي من أفكار الشيخ الإمام محمد عبده أم أنه جاءته بإيعاز من السلطات الفرنسية في الجزائر التي كانت تحاول وتسعى بكل جهدها إبعاد الجزائريين عن العمل السياسيين، وجعلهم خاضعين موالين لها؟ من الصعب جداً الإجابة على هذا التساؤل لعدم توفر الوثائق التي تجعلنا نبني عليها الإجابة الموضوعية الصحيحة، ولكن مهما يكن فإنه يبدو أن هذه النصيحة قد أثارت الكثير من النقاش والتساؤلات في حينها، وهو الأمر الذي دفع بمحمد رشيد رضا بالتوقف عندها ملياً في مقال له على صفحات مجلة المنار بعنوان (نصيحة الأستاذ الإمام لأهل الجزائر وتونس) حيث كتب يقول مبررا الأمر الذي دفع بالشيخ الإمام إلى تقديم هذه النصيحة هو «أن الحكومات في جميع الأرض يطبقون على البلاد التي يستعمرونها ما داموا يعتقدون أن أهلها ساخطين عليها أو لهم ضلع مع حكومات أخرى، وهذا الإعراض عن السياسة لا ينافي مخاطبة الحكومات فيما يرونه ضارا بهم من القوانين والمعاملات، فإذا لم تكشف ظلامتهم بعد الالتجاء إليها في كشفها كانوا معذورين إذا سخطوا وتربصوا بها الدوائر» ونجده يواصل كلامه موضحاً الأمر ولكن بنوع من المراوغة والمداورة فيقول أن «المشهور عند العارفين بالسياسة العامة أن فرنسا تبحث دائما عن طريقة يطمئن بها أهل الجزائر لحكومتهم وتطمئن هي لرضاهم عنها ولا شك أن هذه الطريقة تنفع الحاكم

والمحكوم، وعدم السير فيها يضرّ بالمحكوم أكثر مما يضرّ بالحاكم، ونحن نعتقد أن الطريقة الوحيدة هي في حسن المعاملة من فرنسا وإعراض الجزائريين والتونسيين عن السياسة إلى العلم الذي ينير العقول، والعمل الذي يشغل عن الفضول...»[31].

ويجب علينا هنا التوقف ملياً عند موقف الشيخ الإمام محمد عبده من السياسة والاشتغال بها، فهو رافض رفضاً تاماً لذلك وهذا يمكن لنا أن نعيده إلى ما تعرض له من الاضطهاد والسجن بعد أن فشلت الثورة العرابية في مصر سنة 1882، حيث أن المعروف عنه بشكل جلي عند الخاص والعام مقولته المشهورة « ما دخلت السياسة في شيء إلا أفسدته.» وكذلك قوله: «فإن شئت أن تقول أن السياسة تضطهد الفكر أو العلم أو الدين، فأنا معك من الشاهدين، أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة ومن معنى السياسة، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة، ومن كل شخص يتكلم في أو يتعلم أو يحن أو يعمل في السياسة، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس»[32].

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا في توضيح وتفسير هذا الموقف الغريب من الشيخ الإمام محمد عبده، بشأن السياسة أن غرضه من ذم السياسة ونهي المسلمين عن الاشتغال بها «أن السياسة في جميع بلاد المسلمين استبدادية جائرة، سواء كان حكامها وساستها من أهلها، أم من الأجانب المشتغلين عليها، فتأييد سياستهم بالعلم والدين إفساد لهما، ومناوئتها بهما عرضة لمنع إقامتهما، والتنكيل بأهلهما، فالطريقة المثلى اجتنابها ومداورة أهلها وإقناعهم بكل

وسائل الإقناع الممكنة بأن الإصلاح العلمي أو الديني المطلوب هو خير لبلادهم ورعاياهم، ونافع لهم، وغير ضار بهم»[33].

4– تداعيات الزيارة على الجزائر ونتائجها:

عندما حلّ الشيخ الإمام محمد عبده بالجزائر، وجد أن أفكاره وآرائه منتشرة بشكل واسع في أوساط بعض الجزائريين، حيث كتب محمد رشيد رضا أن محمد عبده عندما عاد من زيارته إلى كل من الجزائر وتونس، كان جد سعيد بما رأى فيها من وجود حزب كبير له فيهما وذلك بفضل دور مجلة المنار في نشر أفكاره الإصلاحية[34]، ونريد التوقف هنا ملياً لنقول: هل كانت هذه الزيارة مجرد تحصيل حاصل بما أن أفكاره وآراءه الإصلاحية سبقته إلى الانتشار في أوساط الجزائريين قبل قيامه بزيارتها بسنوات؟ أبدا فإن لهذه الزيارة دور كبير في ترسيخ وتعميق انتشار فكر وآراء محمد عبده الإصلاحية، كما أن الذين كانوا يؤمنون بهذه الأفكار ازدادوا تمسكا وتشبثا بها، وهذا بعد أن سمعوا منه بالمجالسة والمحادثة المباشرة وجها لوجه، لأن المجالسة والمحاورة المباشرة أكثر قوة وتأثيرا من القراءة فقط، وهناك العديد من الأدلة المؤكدة لنا لهذا القول منها ذلك التقريض الذي كتبه محمد بن مصطفى بن الخوجة حول تفسير الشيخ الإمام محمد عبده لسورة العصر الذي ألقاه عليهم في الجزائر خلال هذه الزيارة، والذي أشرنا إليه سابقا، وقيام ابن الخوجة بقراءته في العديد من المناسبات على الجزائريين.

كما أن الشيخ الإمام محمد عبده لم ينس ذلك الشاب الذي جالسه كثيراً بل ولازمه كظله طيلة المدة التي مكثها بالجزائر ألا وهو عبد الحليم بن سماية، حث كتب إليه رسالة بعد مغادرته الجزائر بحوالي أسبوعين وكان فيها الشيخ الإمام في زيارة إلى صقلية، إذ أن الرسالة

مؤرخة بـــ 30 جمادى الأخرى 1321 هـــ وهذا التاريخ يتوافق مع 21 سبتمبر 1903 وفيها يشهد له بعلمه الواسع وأدبه الغزير، وبرجاحة عقله، ويخاطبه قائلاً : «... أنك ستكون أمام قومك، تهديهم إن شاء الله سبيل الرشاد وتبصرهم بما يوفر عليهم الحظين: حظ المعاش، وحظ المعاد» وينصحه بقوله: «... فخذ من الوسائل ما يبلغك بفضل الله غاية ما يرمي إليه استعدادك، وأفضل ذلك فيما أرى استمرارك على مزاولة كلام البلغاء من أهل اللسان العربي، وإتمام ما سبقت لك البداءة فيه من اللسان الفرنسي، ثم دراسة أخلاق البشر، وما يكون له أثر في تحويلها بتدقيق يجدربه لقب التحقيق، ومن ذلك النظر في تاريخ الأمة الإسلامية، وتنقل الدين في أطواره، وعلل ذلك في أسبابه، حتى يتيسر الحكم في أمراض النفوس، وحسن اختيار الدواء الذي يناسبها، ثم التقدم إلى كل سريرة بما لا تشمئز منه، ولا يبادر بالنفرة عنه، وبذل الجهد في حمل الهم على طلب العلم لتستنير به البصائر في العمل، وشحذ العزائم من الجلد في السعي والكد في كسب الرزق من وجوه الحل، والإنفاق منه في سبيل المنافع، وطرق الخير، وأن يكون ذلك كله ديدنا للداعي لا يفتر عنه حتى يكثر في الناس من هو جدير بالنسبة إلى رب الناس، وذلك في ذكاء ولدنا الفاضل الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة، وإخلاص حضرة صاحب الفضيلة مفتي الحنفية ما يساعدك على ما تقصد من نفع العامة، ونصح الخاصة، وإني وإن كنت على ثقة من كمال عقلك، ومعرفتك بما إليه حاجة المسلمين اليوم فإني لا أجد مندوحة عن التصريح بالتحذير من النظر في سياسة الحكم أو غيرها من الحكومات، ومن الكلام في ذلك فإن هذا الموضوع كبير الخطر، قريب الضرر، وإنما الناس محتاجون إلى نور العلم، والصدق في العمل والجد في السعي، حتى يعيشوا في سلام وراحة مع من يجاورهم من

أهل الأمم الأخرى، ولا يتعلقوا من الوهم بحبال تنقطع في أيديهم متى جذبوها، فيسقطوا والعياذ بالله فيما لا منجاة منه»[35].

ويجب علينا هنا الإشارة إلى أن محمد عبده في آخر هذه الرسالة قد أعاد على مسامع عبد الحليم بن سماية تلك النصيحة التي قدمها لهم عندما كان متواجدا في الجزائر وهي ضرورة الابتعاد عن الاشتغال بالسياسة وعليهم العمل والجد في تحصيل العلم والمعارف لأنها هي الأنفع والأجدى !

ولقد نظم السيد عبد الحليم بن سماية قصيدة رائعة في مدح الشيخ الإمام محمد عبده، وهذا بعد أن غادر الجزائر، وهي قصيدة تزيد على خمسين بيتا على حسب ما يذكر محمد رشيد رضا حيث يقول: «اطلعنا على قصيدة تزيد على خمسين بيتا للشيخ عبد الحليم بن سماية، أشهر علماء الجزائر مدح بها الأستاذ الإمام، وأرسلها إليه في القاهرة من عهد قريب – نشرت القصيدة يوم 16 فبراير 1904 على صفحات مجلة المنار–[36] فسرنا منها أنها آية من آيات صلة علماء الإسلام ببعضهم بعض في الأقطار المتباعدة وشعور أهل المغرب منهم بما يشعر به أهل المشرق من قدر الأستاذ الإمام».

يبدأ عبد الحليم بن سماية قصيدته بوصف الشيخ الإمام بأنه الشمس التي أشرقت على الجزائر، فقضت على الظلمة التي كانت تعيش فيها ونور هذه الشمس جاءت دون التطلع إليها:

فأنت لنا شمس تنير على المـــدى أتى نورها من غير أن نتطلعا

أدير بذكراك الذي منك قد مضى فاشرب كأسا بالضياء مشعشعا

يذكر فيك المجد والعلـــم والتقـــى فانظر من علياك عرشا مرفعا.

ثم يخبره بأنه دائما يتذكر تلك المجالس العلمية التي كان الإمام يعقدها هنا في الجزائر خلال زيارته:

وتلوي إلى تلك المجالس فكرتي فتترك قلبي بالخيال ممتعا

محافل كان العلم فيها مجالسي أسامر بدرا بالجلال تقنعا

ثم يطلب من الناس أن يستمعوا إلى هذا الإمام العالم الضليع في شتى العلوم ويعتبره حكيما يزلزل الظلم والجهل بكلامه الواضح البليغ، وهو قوي في حججه، وهذا ما يجعله يوقف الكثير من الجاحدين، والممارين عند حدهم فخروا ركعا واستسلموا له:

فاسمع فصلا من حكيم وحكمه إذا ما بدت خرت درى الزور ركعا

فما بال أقوام هدى الله عقلهـــم يمارون فيه والسحاب تقشـــــعا

ألم ينظروا الآثار تشهد بالعلى وأن تبيع الماء يـــوجب مـــنـــــبعا

لســـــان متى يوما تألق برقة يسبح وعد الســـامعين لما دعا

أمن بعد إجماع عليه وأخذه نراه على أيدي الهوى قد تروى

فهل مرية من بعد حق مشاهد وما الحـــــق إلا أن تـــراه وتـــسمعا

يقول يشد الفعـــل متن بيانه وما القول لولا الفعل إلا مصدعا

يطالب بالأعمال في العلم أهله وحق له من عالم قـــد تضلـــعا

لعمرك ما تغني العلوم وحفظها إذا لم تكن فيها خطـــيبا ومصـــقعا

تحس بها كالماء يسري بعوده متى رامه فكر لا مسترجعا

وينهي عبد الحليم بن سماية قصيدته هذه بالحديث عن كتاب (رسالة التوحيد) وعن أهميتها ومدى قوة الحجج والبراهين التي أوردها في هذه الرسالة:

أتى بكتاب في الكلام بيانه يغادر من صم الجنادل خشعا
ويمسح ران القلب عمن له رنا يسكن جائش القلب مهما بردعا
براهينه في النفس والكون والحجا وليست لرسطاليس أو من تصنعا
تنزه عن دور وغل تسلسل ولم سلسلت آياته من تنطعا
يقودك للبرهان غير مقيد يردك حدود العقل مهما تطلعا

ونسجل هنا أن الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة الذي كان ملازما أيضا للشيخ الإمام محمد عبده خلال زيارته، أنه عندما تناهى إلى أسماعه خبر وفاة الشيخ الإمام رثاه بقصيدة مؤثرة جدا، وتتكون من خمس وأربعين بيتا، ولقد قام صاحب كتاب تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده بنشرها كاملة[37].

بدأ هذه القصيدة بوصف عظمة هذا الحدث، وجسامته ومدى الحزن والأسى الذي عمّ جميع أرجاء العالم الإسلامي، وأن محمد عبده لم تبكه مصر لوحدها فقط بل كل أرجاء الدنيا:

مصاب جسيم عم كل العشائر وأسلمنا قهرا لحكم المقادر
رمينا بخطب لا يقاس بغيره فجمعنا برزء ماله من مناظر
وأكبادنا ذابت أسى وكآبة وأعيتنا مثل العيون الهوامر

على موت مفتي المسلمين وفخرهم ومن كان للإسلام نور البصائر
بكت مصر والدنيا جميعا لفقده وأبناؤها من كل بـــاد وحـــاضر
وأبدى جميع الناس حزنا وحرق واجروا دموعا كالغيوث المواطر
وأثـــنوا علـــيه بالذي هو أهله تناد جميلا طيبا كالعنابر
على مثل ذا كل الجرائد أجمعت وماشد عنها غير خاس وخاسر

وبعد ذلك تحدث لنا عن مميزات أدبه التي ما اطلع عليها إنسان إلا وأصبح علمه غزيرا، وكذلك بيّن لنا بيانه الساحر:

تآليفه تنسيك ما حيك قبلها وتغنيك عن جل الطروس الكبائر
أفادت من التحقيق كل يتيمة تقاصر عنـــها كـــابر إثـــر كابر
وحلت بتدقيق عويصا ومشكلا بحيث غدا كالبدر يبـــدو لناظر
عليك بها إن رمت تجني هداية وتصبح أستاذ العـــلوم الغزائر

وبعد ذلك يشرع الشاعر في التحسر على الفقيد الراحل وإطلاق آهاته عليه وكم هي حارة ودامعة وحزينة:

فواها على شمس المعارف والتقى وواها على التذكير فوق المنابر
وواها على التدريس في كل مهب وواها على الأقلام بعد المحابر
وواها على التوحيد الفقه واللغـــى وواها على التفسير أصل العناصر
وواها وواها ألف الف ولن أفـــي ولو أنني نمقت كل الدفاتر
وأن لنا الصبر الجميل وقد هوى منار الهدى واندك طرد المناظر

وبعد هذا ينتقل الشاعر إلى الحديث عن أعمال الإمام الراحل فكم هي كثيرة ومفيدة في آن واحد:

فمن لكتاب الله تكشف سره ويشرحه وفق الفنون الحواضر
فقدنا إمام كان حجة عصره وقدوة أرباب النهى والمظاهر
حكيما سما فوق السماك بهمة هماما جليل القدر حـــر الضمائر
فيأمر بالمشروع في كل محفل وينهى عن المحظور طبق الأوامر
ويصدع بالقول الصحيح نصيحة ولا يبرهن في الحق أقسى الجبابر
وكم ذب عن دين النبي محمد ودافع عنه بـــالردود البواتر

وفي آخر القصيدة، نجد الشاعر يترحم على الشيخ الإمام طالبا له الغفران والرحمة من عند الله سبحانه وتعالى:

فيا رب قابله بعفو ورحمة وعامله بالغفران يا خير غافر
وأحسن إليه وارض عنه وأرضه بكل نعـــيم لم يجل في الخواطر
وبالحور والولدان أنسه منه وأنزله في الفردوس من دار الأخاير
وارو صداه من رحيق ختامه هو المسك يزري عرفه بالأزاهر

يرى الباحث علي مراد أن زيارة مفتي مصر محمد عبده إلى الجزائر أعطت نفسا جديدا ومنعشا لعلاقة الجزائر بالمشرق، وهذا بعد أن كانت محرومة منذ أمد بعيد من كل تأثير مفيد للشرق، وأن لهذه الزيارة الحدث دلالة تاريخية تتمثل في استعادة الصلة العاطفية والروحية مع الكيان الواسع للأمة الإسلامية[38]، ويذكر أيضا أنه بفضل هذه الزيارة أخذت الأفكار

الإصلاحية للشيخ محمد عبده تنبت في الأذهان في الجزائر، خاصة في مراكزها الكبرى ذات التقاليد الثقافية (الجزائر، قسنطينة، وتلمسان). ويثير علي مراد نقطة في غاية من الأهمية عندما يقول: «صحيح أن أنصار مفتي مصر المقتنعين كانوا أقلية ولكن كان لهم تأثير فكري واجتماعي كاف جعلهم يستميلون تعاطف الناس، وانضمامهم إلى النزعة الجديدة، وكان أحدهم، هو عبد الحليم بن سماية، الأستاذ بالمدرسة الرسمية بالعاصمة، يشغل منصباً ممتازا إشاعة الأفكار الإصلاحية ضمن الإطارات المدنية والدينية المقبلة للمجتمع الإسلامي الجزائري، وفضلا عن هذا كان المفتي الحنفي للمسجد المالكي الكبير ومفتي جامع السفير بالعاصمة قد تبنيا آثار محمد عبده، كانا يتمتعان بسلطة معنوية كافية تمكنهما من الإسهام في إشاعة الإصلاح في مناطق نفوذهما، وكانا مدعمين من قبل بعض الأعيان والبرجوازيين القاطنين بالعاصمة، والقريبين جداً من الأوساط الدينية والفكرية الذين كان بإمكانهم أن يكونوا مثالاً جديراً بان يحتذى»[39].

ويمكن لنا أيضا أن نقول أنه من أبرز تداعيات هذه الزيارة على الجزائر أن بعض الجرائد التي صدرت في الجزائر بعد هذه الزيارة قد تبنت أفكار الشيخ الإمام محمد عبده منها على سبيل المثال جريدتي الفاروق وذو الفقار، الأولى لصاحبها عمر بن قدور الجزائري والذي أصدرها سنة 1913 واستمرت إلى غاية 1915، والثانية (ذو الفقار) لصاحبها عمر راسم الذي أصدرها سنة 1913، وكان قد أصدر قبلها جريدة الجزائر سنة 1908، ولم يتمكن من إصدار سوى ثلاث أعداد من جريدة ذو الفقار ومقاصدها أنها «جريدة عبدوية إصلاحية، وأنها لا تخرج عن الطريقة التي خطها لها رجال الإصلاح المخلصين، ومما اتخذته مبدأ لها، بعدها عن

السياسة لأنها مهما دخلت في شيء إلا أفسدته»[40] وهنا نلاحظ مدى تأثر هذه الجريدة وصاحبها بنصيحة الشيخ الإمام للجزائريين خلال زيارته.

ويذكر محمد ناصر أن عمر راسم اتخذ هذه الجريدة ليصلح بها الأوضاع الاجتماعية المتدهورة، ويدعو فيها إلى الإصلاح على الطريقة العبدوية...»[41]..

الخاتمة:

إن هذه الزيارة تعتبر حدثاً هاماً في التاريخ الجزائري المعاصر، لما لها من آثار على مستقبل الحركة الإصلاحية الجزائرية التي بدأت في البروز قبل هذه الزيارة بسنوات، ولقد اكتشف خلال زيارته هذه أنه كان يتمتع بمكانة خاصة لدى بعض الجزائريين وهذا بفضل مجلة المنار، لهذا وجدنا هؤلاء يطلبون من محمد عبده أن يوصي صاحب المنار أن لا يذكر في مجلته دولة فرنسا بسوء لئلا يمنع المنار من الدخول إلى الجزائر، لأنهم يعتبرون هذه المجلة مدد الحياة لهم، وإذا انقطع هذا المدد انقطعت عنهم الحياة.

الهوامش:.

1. هناك تضارب كبير في شأن تاريخ مولد محمد عبده فهناك من يحدده بسنة 1843 وآخرون بسنة 1845، إلا أن التاريخ المرجح والصحيح هو سنة 1849، وهذا بناء على أنّ تلميذه محمد رشيد رضا والذي كان مقربا جدا إليه يقر بهذه السنة في كل ما كتبه عن الشيخ الإمام. انظر بهذا الشأن: عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث والمعاصر، محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجاً، (دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2005)، ص ص 177- 178.

2. انظر ذلك في: محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده، (مطبعة المنار، القاهرة، 1931)، الجزء الثاني، ص ص 522- 532.

3. أبو القاسم سعد الله: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005)، ص 158.

4. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005)، ج5، ص587.

5. ديفيد دين كومتز: الإصلاح الإسلامي: السياسة والتغيير الاجتماعي في سوريا أواخر العهد العثماني، ترجمة: مجيد راضي، (دار المدى، دمشق، 1999)، ص 54.

6. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ج5، ص 584.

7. محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام...، ج2، ص ص 634- 635.

8. المصدر نفسه، ج1، ص 283.

9. المصدر نفسه، ج1، ص 283.

10. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائري الثقافي، مصدر سابق، ص 584.

11. انظر عن هذه الرحلات ونشاطاته فيها في: محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام، ج1، ص ص 846-870؛ وانظر أيضا الجزء الثاني من الكتاب، ص ص 473- 502.

12. المصدر نفسه، ج1، ص ص 802- 816، في الجزء الثاني من ص 400 إلى ص 468.

13. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مصدر سابق، ص 584.

14. المقال الذي يقصده محمد رشيد رضا هنا هو ذلك المنشور في الجزء الثاني من المجلد الخامس والمنشور في العدد الصادر يوم الثلاثاء 16 ربيع الثاني 1320 هجرية الموافق لـــ 22 يوليو (تموز) 1902، ص ص 293-298.

15. مجلة المنار، الجزء الثالث، المجلد السادس، الصادر بتاريخ الأربعاء غرّة صفر 1321، الموافق لـــ 3 مايو (نيسان) 1903 ص ص 79- 80. (نشير هنا إلى أن الخلط بين شهري ماي وأفريل موجود في المجلة أصلا

والعدد صدر أصلا في شهر مايو (أيار)، ومحمد رشيد رضا هنا يقصد زيارة رئيس الجمهورية إميل لوبيه Emile Loubet التي دامت من 15 إلى 26 أفيرل 1903.

16. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مصدر سابق، ص 585.

17. Gilbert Meynier : L'Algérie révélée la guerre de 1914- 1919 et le premier quart de XX siècle (Genève 1981), p 246.

18. محمد شيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق، ج3، ص 17؛ نقلا عن جريدة (الشرق) المصرية في تأبينيتها للشيخ الإمام في عددها 550 الصادر يوم الأربعاء 8 جمادى الأولى 1323هـ، الموافق لـــ 12 يوليو 1905.

19. أبو القاسم سعد الله: أفكار جامعة (دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005)، ص ص 79– 80.

20. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مصدر سابق، ص ص 584- 585.

21. مجلة المنار، الجزء الثالث عشر، المجلد السادس، الثلاثاء غرّة رجب 1321 الموافق لـــ 22 سبتمبر (أيلول) 1903، ص 530.

22. محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج1، ص 923.

23. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مصدر سابق، ص 586.

24. المصدر نفسه.

25. محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام، ج1، ص 925.

26. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مصدر سابق، ص 591.

27. جريدة المنار، الجزء الخامس عشر من المجلد السادس، الصادر يوم الخميس غرة شعبان 1321، الموافق لـــ 22 أكتوبر 1903، ص ص 571- 593.

28. مجلة المنار: الجزء الثالث والعشرون من المجلد السادس، الخميس غرة ذي الحجة 1321 الموافق لـــ 18 فبراير (شباط) 1904، ص 917.

29. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2009)، ج3، ص 120 و140.

30. محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام، ج1، ص 873.
31. مجلة المنار: الجزء الخامس عشر من المجلد السادس، الخميس غرة شعبان 1321 الموافق لـــ 23 أكتوبر (تشرين الأول) 1903، ص ص 608- 609.
32. محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام، ج1، ص 891.
33. المصدر نفسه.
34. المصدر نفسه، ج1، ص 1017.
35. المصدر نفسه، ج2، ص ص 617- 618.
36. انظر القصيدة كما نشرها محمد رشيد رضا في مجلة المنار، الجزء الثالث والعشرون، المجلد السادس بتاريخ الخميس 1 ذي الحجة 1321 الموافق لـــ 18 فبراير 1904، ص ص 917- 918. ونشير هنا إلى أن محمد رشيد رشا لم ينشر من القصيدة سوى عشرين بيتا، وهنا نتساءل ما مصير بقية الأبيات؟
37. محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام،ج3، ص ص 349- 351.
38. علي مراد: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، بحث في التاريخ الديني والاجتماعي من 1921 إلى 1946، ترجمة: محمد يحياتن (دار الحكمة، الجزائر، 2007)، ص 36.
39. المرجع نفسه، ص ص 37- 38.
40. محمد ناصر: عمر راسم المصلح الثائر، (مطبعة لافوميك، الجزائر)، ص 94.
41. المرجع نفسه، ص ص 16- 17.